اسحاق الموصلي

بقلم : الاستاذ محمد سيد الحيادي

هو ابو محمد اسحاق بن ابراهيم بن ميمون (ماهان) ابن بهمن بن نسك التميمي بالولاء الارجاني الأصل المعروف بابن النديم الموصلي ، ومن كناه ايضاً ابو صفوان وكان الرشيد مولعاً بها اوقعها عليه اسحاق بن ابراهيم بن مصعب مزحاً ، واصله أرجاني من فارس خرج هارباً منها من جور بني أمية في خراج كان عليه فاتى الكوفة ونزل في بني دارم ، قال اسحاق عن ابيه : وأصلنا من فارس ولنا بيت شريف في العجم وكان جدنا ميمون قد هرب من جور بعض عمال بني امية فنزل في الكوفة في بني عبد الله بن دارم . اذاً فاسحاق من الموالي وكان يفتخر بانتسابه الى خزيمة بن خازم فيقول :

فاذا كانت الاحرار أصلي ومنصبي ودافع ضيمي خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت يداي الثريا قاعداً غير قائم

اما ما قيل في نسبته الى الموصل ، فانه لما نشأ واشتد وادرك صحب الفتيان واشتهى الغناء فطلبه واشتد أخواله في ذلك عليه وبلغوا منه ، فهرب الى الموصل فاقام بها نحواً من سنة فلما رجع الى الكوفة قال له إخوانه من الفتيان : مرحباً بالفتى الموصلي ، فلقب به . وسبب طلبه الغناء انه خرج الى الموصل فصحب جماعة من الصعاليك كانوا يصيبون الطريق ويصيبه معهم ويجمعون ما يفيدونه فيقصفون ويشربون ويغنون فتعلم منهم شيئاً من الغناء فكان اطيبهم فيه واحذقهم ، فلما احس بذلك من نفسه اشتهى الغناء وطلبه وسافر الى المواضع البعيدة فيه ، وجاء عن حماد بن اسحاق عن ابيه قال : اسلم ابي الى الكتاب فكان لا يتعلم شيئاً ، ولا زال يضرب ويحبس ولا يجمع ذلك فيه فهرب الى الموصل وهناك تعلم الغناء ثم صار الى الري وتعلم بها ايضاً ، وطال مقامه هناك واخذ الغناء الفارسي والعربي وتزوج بها شاهك ام اسحاق ابنه وسائر ولده . وجملة القول ان إسحاق وأباه ابراهيم لم يكونا موصليين مولداً ودماً ، ولكن الموصل هي المورد الاول لشهرتها لما نفخت فيها من روح الفن ولما نمت فيها من عناصر الجمال الأدبي .

مقامه في المعارف

موضعه من العلم والأدب والرواية وتقدمه في الشعر ومنزلته في سائر المحاسن اشهر من ان يدل عليه بوصف ، فقد كان راوية للشعر والمآثر ، قد لقي فصحاء الاعراب من الرجال والنساء ، فاخذ عنهم واعطاهم ، وكان يضع الشعر وينحله للاعراب رجاء ان يعابي اصحابه ويغرب عليهم .

روى عنه مصعب بن عبدالله الزبيري ، والزبير بن بكار وغيرهما ، وكانت له يد طولى في الحديث والفقه وعلم الكلام ، كتب الحديث عن سفيان بن عيينة ومالك بن انس وهشيم ابن بشير وابي معاوية الضرير وأخذ الأدب عن الأصمعي وابي عبيدة . وكان له كثير من الكتب حتى قال ابو العباس ثعلب : رأيت لاسحاق الموصلي الف جزء من لغات العرب وكلها سماعه ، وما رأيت اللغة في منزل احد قط اكثر منها في منزل اسحاق ثم منزل ابن الأعرابي . وقال الأصمعي : خرجت مع الرشيد فلقيت اسحاق الموصلي بها فقلت له : هل حملت شيئاً من كتبك ؟ فقال : حملت ما خف ، فقلت : كم مقداره ؟ فقال : ثمانية عشر صندوقا فعجبت وقلت : اذا كان هذا ما خف ، فكم يكون ما ثقل ؟ فقال اضعاف ذلك . وقد عد له ابن النديم اثنين وثلاثين مؤلفا وكذلك ذكرها معجم الأدباء ، واهمها كتاب اغانيه ، غير انه اختلف في نسبته اليه والجزء الاول منه (الرخصة) لاشك فيه . وهذا الفضل وغيره كما سيأتي يرجع الى تعهد اسحاق نفسه ونشوئه نشأة طيبة فقد قال عن

الأطفال ذلك فاننا نجني ثماراً يانعة تربو على ثمار تقحيم المعلومات وتلقين المعارف في ادمغة الاطفال لأن المعرفة باسلوب الحكايات والثقافة عن طريق الملاحظات والمشاهدات تكسبان الاطفال قوة النباهة والذكاء ، وبهما يتمكن الاطفال من ضبط كل ما يقع تحت حواسهم ويمر عليهم . اما ما يقرأه الطفل أو يراه او يسمعه فيجب أن يمر في سرجل عقله وعلى معلميه ان يساعدوه على ان يستخلص هذه المعارف وتلك المعلومات لتأخذ مكانتها الصحيحة وحيزها المرغوب فيه ، فان ذهر الطفل على سذاجته وقلة تجربته مفتقر الى مربٍ قدير ، وعقليته محتاجة الى مروض ماهر ، وحياته محدودة لا تزال في مهد التكوين وبدء النشوء وبذلك نستطيع ان نربي اطفالا مرهفي الحس اذكياء القلوب اقوياء الملاحظة .

زكي حسن

نفسه : بقيت دهراً اغلس في كل يوم الى هشيم فاسمع منه ثم اصير الى الكسائي والفراء او ابن غزالة فاقرأ عليه جزءاً من القرآن ثم آتي منصور زلزل فأضاربه طرقين او ثلاثة ثم آتي عاتكة بنت شهدة فآخذ منها صوتاً او صوتين ، ثم آتي الاصمعي وابا عبيدة فأناشدهما واحدثهما فاستفيد منهما ، ثم اصير الى ابي فاعامه ما صنعت ومن لقيت وما اخذت واتغدى معه ، فاذا كان العشاء رحت الى امير المؤمنين .

فهؤلاء الاعلام هم اساتذة اسحاق ومربوه ومعلموه في سائر العلوم والمعارف وقد تعلم ضرب العود اكثر ما تعلم من استاذه منصور زلزل ، قيل دفع له مائة الف درهم .

شعره ونثره

دخل على الرشيد يوما مع الاصمعي فانشده :

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري ... فذلك شيء ما اليه سبيل
ارى الناس خلان الكرام ولا ارى ... بخيلا له حتى الممات خليل
واني رأيت البخل يزري باهله ... فاكرمت نفسي ان يقال بخيل
ومن خير حالات الفتى لو علمته ... اذا نال خيراً ان يكون جميل
فمالي فعال المكثرين تجهلا ... ومالي كما قد تعلمين قليل
وكيف اخاف الفقر او احرم الغنى ... ورأي امير المؤمنين جميل

فقال الرشيد : لاتخف ان شاء الله ثم قال : لله درابيات تأتينا بها ما اشد اصولها واحسن فصولها ، وأقل فضلها وامر له بخمسين ألف درهم ، فقال له اسحاق : وصفك يا امير المؤمنين لشعري احسن منه فعلام آخذ الجائزة ؟ فضحك الرشيد وقال : اجعلوها لهذا القول مائة الف درهم ، قال الاصمعي : فعلمت يومئذ ان اسحاق احذق بصيد الدراهم مني . ومن شعر اسحاق عند علو سنه :

سلام على سير الفلاص مع الركب ... ووصل الغواني والمدامة والشرب
سلام امرىء لم يبق منه بقية ... سوى نظر العينين او شهوة القلب
لعمري لئن حلئت عن متنهل ... لقد كنت وراداً لمشرعه العذب
ليالي اعدو بين بردى لاهيا ... أميس كغصن البانة الناعم الرطب

فشعره سهل وبناؤه متين بعيد عن التكلف خال من الصنعة ، الفاظ عذبة ومعاني جميلة كشعر شعراء عصره من الفحول يجري كلاما على السنتهم بدون تصنع ولا إعداد وذلك لقربهم من اللغة الفصحى واتصالهم بالبيئة العربية التي لم يكن قد تغلغل فيها اللحن بعد ، ناهيك مما امتاز به اسحاق من عاطفة قوية وفن ممتاز في الغناء يجعلانه اذا شعر كانه يغني واذا غنى فكانه يشعر .

وقد حاولت ان اقف على نماذج من نثره فلم اخظ سوى في مكان واحد في معجم الادباء ، فقد حدث علي بن يحيى المنجم : ان اسحاق لما انحدر الى البصرة كتب الى علي بن هشام القائد : « جعلت فداك ، بعث الي ابو نصر مولاك بكتاب منك الي يرتفع عن قدري ويقصر عنه شكري ، فلولا ما اعرف من معانيه لظننت ان الرسول غلط بي فيه ، فقلنا ولك يا ابا عبد الله .... وبعد ان يضمن كلامه شعراً يقول : واما بعد فاني اعلم انك وان لم تسألني عن حالي تحب ان تعلمها وان تأتيك عني سلامة فانا يوم كتبت اليك سالم البدن .. الخ »

منزلته في الغناء

واما الغناء فكان اصغر علومه وادنى ما يوسم به وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه ، فانه كان له في سائر ادواته نظراء واكفاء ولم يكن له في هذا نظير ، فانه لحق بمن مضى فيه وسبق من بقي واوضح للناس جميعاً طريقه فاوضحها وسهل عليهم سبيله وانارها ، فهو امام اهل صناعته جميعاً ، ورأسهم ومعلمهم ، على انه كان اكره الناس للغناء واشدهم بغضاً لان يدعى اليه او يسمى به ويقول : « وددت اني اضرب ـ كلما اراد من يندبني ان اغني ، وكلما قال اسحاق الموصلي المغني ـ عشر مقارع ولا اطيق اكثر من هذا ـ واعفى من الغناء والنسبة اليه . »

وكان مع كراهته الغناء ضن خلق الله واشدهم بخلا به على كل احد حتى على جواريه وغلمانه ومن يأخذ عنه منتسباً اليه متعصبا له فضلا عن غيرهم . وهو الذي صحح اجناس الغناء وطرائقه وميزه تمييزاً لم يقدر احد عليه قبله ولا تعلق به احد بعده فقد اتى اسحاق على كل ما رسمته الاوائل مثل اقليدس ومن قبله ومن بعده من اهل العلم بالموسيقى ووافقهم بطبعه وذهنه فيما افنوا فيه الدهور ، من غير ان يقرأ لهم كتابا او يعرفه .

كانت صنعته محكمة الاصول ونغمته عجيبة الترتيب وقسمته معتدلة الاوزان وكان يتصرف في جميع بسط الايقاعات ،

في بساط منها أراد ان يتغنى فيه ، وتأ قد اقوى صوت جاء في ذلك البساط لحذاق القدماء فعارضه، وكان يذهب مذهب الاوائل ويسلك سبيلهم ويقتحم طرقهم فيبنى على الرسم فيصفه ويحتذي على المثال فيحيله فتأتي صنعته قوية وثيقة يجمع فيها حالتين : القوة في الطبع وسهولة المسلك .

حفظ كثيراً من الاهزاج وكان يعتبرها اصلح مادة للغناء وغنى كثيراً من شعر الفحول القدماء امثال النابغة الجعدي والمهلهل والحارث بن عباد وابن قيس الرقيات وابي دهبل ولابيه ابراهيم الموصلي وغيرهم . حدث مرة ان غنى المأمون ثلاثين صوتاً من اهزاج القدماء ، على ان قدرة اسحاق في فن الغناء لايمكن ان نصورها تصويراً واضحاً إلا باصطلاحات الفن نفسه ، وذلك لايتيسر إلا لمن كان له إطلاع واسع على اسرار الفن وكان من المتخصصين به ولذلك تركنا هذه الناحية وان كانت المراجع التي تناولناها لاتخلو من الاشارة اليها نحو :

« إنه اول من احدث التخنيث في الغناء ليوافق صوته ويشاكله فجاء معه عجباً من العجب ، وكان في حلقه نبو من الوتر إحتال بحذق التخنيث لمنافرة حلقة الوتر حتى صار يجيبه ببعض التخنيث فيكون احسن له في السمع » فلا ندري معنى نبو من الوتر، والتخنيث وغيرها من الاصطلاحات التي وردت في اثناء الحديث عن فن اسحاق : كالثقيل وثقيل الثقيل والخفيف وخفيف الخفيف مما لم نتعرض له بل تركناه لارباب الدراية . المهم ان اسحاق سبق غيره في هذا الفن فقد كان المغنون يتضاءلون امامه اذا غنى لانه كان اعلم اهل زمانه في الغناء وانفذهم في جميع فنونه واضربهم بالعود وباكثر آلات الغناء واجودهم صنعة ؛ وقد تشبه بالقديم وزاد في بعض ما صنعه عليه وعارض ابن سريج ومعبداً فانتصف منها

عرف في مجلس المأمون خطأ في وتر بين ثمانية وعشرين جارية يغنين وامتحن بادخال لحن رومى فسرعان ما عرفه .

كان كبار المغنين امثال علوية ومخارق وعمرو بن بانه وابراهيم ابن المهدي يجتهدون ويطمعون في غلبه فاذا غنى هو بذهم وكان المغنون يجتمعون مع اسحاق وكلهم احسن صوتاً منه ولم يكن فيه عيب إلا صوته فيطمعون فيه ، فلا يزال بلطفه وحذقه ومعرفته حتى يغلبهم ويبذهم ويفضلهم ويتقدمهم . جهد المغنون ان يأخذوا لحناً له فلم يستطيعوا ان يفوا به لذا فقد اتهموه حسداً باحتيال غناء أبيه بعد وفاته فامتحنه الرشيد ثم اذعنوا

كانت مجالس الخلفاء موارد عذبة كثيرة الزحام ، لذا فقد كانت منافسات شديدة ومزاحمات قوية بين ارباب كل فن ادت في بعض الاحيان الى الحاق الاذى باسحاق الذي كان من اشد المنافسين له ابراهيم بن المهدي فلا عجب اذا خاصمه محتجاً باوهى الاسباب: عابه بترك التحريك في الغناء فبعث اليه اسحاق بكلام غاظه كثيراً ، وكان محمد بن راشد صديقه فنقل عنه حديثاً لابن المهدي فقبد ما بينهما أخذ ابراهيم بن المهدي صوتا له وغير فيه فلما عرف ذلك غضب ، وكثيراً ما تناظرا في مسائل الفن في مجلس الرشيد والمعتصم ، ولم تمنع صلة الاخوة الرشيد من أن ينتصر لاسحاق في بعض الاحيان اذعاناً لاحكام الفن ولم يلتفت لاخيه حينما وشى باسحاق عنده بعدان عرف تهمة. ولقد كان ابراهيم المهدي يأكل المغنين أكلا حتى يحضر اسحاق فيداريه ابراهيم ويطلب مكافأته ومعارضته ولايدع اسحاق بكبته ، وكان اسحاق آفته كما أن لكل شيء آفته

ولاعجب اذا كانت مقدرة اسحاق كما ذكرنا ان تضمه مجالس العظماء وان يكون من ندماء الخلفاء مع مافيه من ظرف مشهور وخلاعة مستحبة .

وقد غنى الخلفاء : الرشيد والمأمون والامين والمعتصم والواثق ، وكان يقيم في دار الخلافة في بغداد او في سر من رأى كما كان يصاحب الخلفاء احياناً كثيرة فى رحلاتهم وروحاتهم وغزواتهم ، فقد خرج مع الرشيد الى الرقة والى الصالحية .

سأل المأمون ان يكون دخوله اليه مع اهل العلم والادب والرواة لامع المغنين فلما اراده للغناء غناه ، فاجابه الى ذلك ثم سأله بعد ذلك ان يأذن له في الدخول مع الفقهاء فاذن له ، وكثيراً ما كان يغضب المأمون عليه ثم يسترضيه. غنى المعتصم فاطربه واجازه وقدر عليه شعراً عجبه وزنه دون معناه فصاغ هو فيه معنى اعجبه فاجازه ، وكان المعتصم يقول : ما غناني اسحاق بن ابراهيم قط إلا خيل الى انه قد زاد فى ملكي ،